الفصل الرابع

الشيطان الأكبر

"لا أحد يحبنا، لا أعرف لماذا؟ ربما لا نكون مثاليين ولكن الله يعلم أننا نحاول أن نكون كذلك، بيد أن كل من حولنا بما فيهم أصدقاؤنا القدماء يقدح فينا لنهز القنبلة الكبرى لنعرف ماذا سيحدث.

إن آسيا كثيرة السكان جداً وأوروبا قديمة جداً وإفريقيا حارة جداً وكندا باردة جدا، وأمريكا الجنوبية سرقت اسمنا"

لنهز القنبلة الكبرى. لم يبق أحد لينقذنا"

راندي نيومان (معنى بوب)

Political science 1970

"إن العالم الأمريكي الشمالي يعمي أبصارنا بإشعاعه، إنه يمنعنا من رؤية أنفسنا بإلزامنا أن لا نرى إلا إياه"

كارلوس فانتيس

"إنني لا أزال أفضل أن أعيش تحت نير الجيش الأحمر بدلاً من أن آكل الهمبرغر"

آلان دبنوا

obeikandi.com

إننا نفهم في مثل هذه الظروف رواج نزعة العداء لأمريكا بانتظام في أجوائنا، فهي تسمح بتجسيد شكلي العار الرأسمالي، من حيث كون الرأسمالية هي في آن واحد ثقافة ونظام اقتصادي. فللشيطان علم هو راية بنجوم، وله عملة هي الدولار، ويرتدي مسوح الخير والفضيلة.

فأمريكا قد التبست باقتصاد السوق إلى حد أنها تبدو وكأنها أنشأته، فكم تقترن لديها روح الريادة وحس المبادرة والنزعة الفردية الغائية القريبة من الفوضوية.

"إن قضية أمريكا هي التجارة" كما قال من قبل كوليدج (1923-1929).

الجرثومة اليانكية:

ولكن أمريكا تبدو محملة بكل الأمارات التي يعرف بها ذنب الغربي: فهي تجمع إلى الغنى عدم المساواة، كما أنها مهيمنة، ومتعجرفة، وملوثة، مؤسسة على جريمة مضاعفة قوامها إبادة الهنود الحمر واسترقاق السود، لا تزدهر إلا بتهديد المدافع، لا تهتم بالمؤسسات الدولية التي تدعمها إلا بحافة لسان حين لا تنبذها، كما أنها متجهة بكاملها لعبادة الورقة الخضراء؛ ذلك الدين الوحيد في هذا البلد المادي.

فهي أمة غريبة، تدلل على صحة النظرية الماركسية في مناح متعددة. الهوة بين الأغنياء والفقراء، ثقل المال واللوبيات والربح، الإمبريالية البديهية. مع أن الشيوعية والاشتراكية لم يكن لهما يوماً

سوى تأثير محدود في أمريكا (تقول الطرفة بالفعل إن الحزب الشيوعي الأمريكي يتشكل من عملاء FBI).

فتبني الشعب الأمريكي بكامله بما فيه الطبقة العاملة لمذهب القطاع الخاص، ظاهرة فريدة، صعبة الفهم بالنسبة للوبي الأمريكي الجنوبي.

ولكن في أمريكا تنمو أيضاً بصفة غريبة أدبيات واسعة "معادية للعولمة" خصوصاً أن فيها مناضلين ومدافعين عن البيئة ومحامين موجودين قرب قلب الإعصار لوصف مساوئه (ولكن بحس برغماتي ينقص في الغالب نشطاءنا).

فمنظمة آتاك تستلهم حيمس توبين الحائز على جائزة نوبل ذي الخلفية الكينزية (حتى ولو كان يرفض كل علاقة بها)، كما أن حملات مقاطعة بعض البضائع وعمليات العصيان المدني تستوحي من المثال الأنغلوساكسوني.

فنزعة العداء لأمريكا في صيغها الأكثر تطرفاً -ولكل قارة جانبها من هذه النزعة- هي مبدأ تأويل شامل يوفر رفاهية ثلاثية الأبعاد نظرية وعملية ووجودية.

إنها تجسد أبرع تجسيد نظرية الأحادية السببية، وتشكل برهان الملاذ الأخير عندما يستنفد العقل كل أدلته. فإذا كانت أمريكا غير موجودة وجب إنشاؤها: فأي كبش فداء أكثر ملاءمة منها للتطهر من ذنوبنا والتخلص من قاذوراتنا؟

أين نجد مثل هذا المكفر لذنوب البشرية، ما دام كل ما هو سيئ في الأرض يمكن أن يعزى إليها؟

obeikandl.com

فحتى الإمبراطوريات الأوروبية القديمة المثقلة بالعار والدم تستعيد عذريتها على حساب أمريكا.

وفي نهاية المطاف، من حظ أي ديكتاتورية أو مجموعة إرهاب إن تطاردها الولايات المتحدة أو توجه اهتماماً إليها. فذلك يضمن لها على الفور التعاطف والعناية من لدن كل من يرون "أن العنصرية الوحيدة المسموح بها في العالم المعاصر هي معاداة أمريكا. (كريستوف باتين).

فانبطاح الجمهورية الإمبراطورية بعد 11 سبتمبر كان بالنسبة لكثير من الناس داعي ابتهاج وليس داعي رأفة: سحقاً لها! يمكن منذ الآن البدء في توزيع الأسلاب خصوصاً أن الغنيمة هائلة بحجم هول الضربة.

لقد رأينا آنذاك بعض متعهدي نزعة العالم الثالث من الشباب والأصغر سناً يخرجون مقتنياتهم من البضاعة المبتذلة لـ"تأويل" الحدث، بمعنى إخضاعه لأحكامهم المسبقة، ولكي يشرحوا لنا، حسب نظرية التكافؤ الشهيرة، أن نظام واشنطن نسخة دقيقة من "البرابرة" الذين يدعي محاربتهم.

فالفيلسوف توني نغري أعلن في خريف 2001 أنه يرفض معا "طالبان الدولار وطالبان البترول"، والروائية الأنغلوهندية أرونداتي روى رأت في عملية "الحرية الأزلية" "ترويجاً لنمط الحياة الأمريكي" (كذا !)، واعتبرت بوش وبن لادن توأمين أيديولوجيين، ووجهين "لرأس الثعبان" نفسه.

أما غونتر غراس وبوتوشتراوس فقد لمسا في انهيار أبراج مركز التجارة العالمي "أصابع المال البارزة اللعينة، ولمسا في غزو أفغانستان "حرب الأشرار ضد الأشرار".

أما بودريار الذي يبدو مفتوناً بجمالية الاعتداء "المرحة"، فينبذ على سواء الخصمين: فالنسق (الأمريكي) بالغ في احتكار القوة وتكثيف كل الوظائف إلى درجة أنه فرض الإرهابيين على رد الفعل عن طريق عملية حاسمة وحادة "إرهاب ضد إرهاب، ليست هناك إيديولوجية خلف هذا"[51].

فعدو أمريكا مهما كان لا يمكن أن يكون سيئاً تماماً، وحتى لو كان مغطى بالدم. لنراهن على أن نزول القوات الأمريكية في يونيو 1944 لو تم اليوم لتمتع العم أودلوف بتعاطف ما لا يحصى من الوطنيين ومن العناصر الراديكالية في أقصى اليسار الذين يحاول العم سام القضاء عليهم.

وفي المقابل، ما أشد نحس شعب تقتله قوة أخرى غير الولايات المتحدة: فستتم إبادته دون اهتمام من أحد (ذلك ما يعرفه الشيشان).

فليس ثمة جريمة يرتكبها مستبد صغير محلي، أو متطرف ديني لتوازي الجريمة الأساسية للأمريكيين: أي جريمة كونهم موجودين ببساطة. فأمريكا مذنبة لا من حيث فعلها ولكن من حيث وجودها، لأنها تجمع بين جريمتين كبيرتين هما السوق والتفوق، الرعب الاقتصادي والرعب الإمبراطوري.

إنها ذرية أوروبا المعيبة، التي تجاوزتها وخانتها، وهي

Obeikandl.com

الجـرثومـة التي تعـشـعـش في رؤوسنا، ويجب انتـزاعـهـا بـأي ثمن. فـالعـداء لأمـريكا ليس أبداً حـادثاً عـرضـيـاً أو أمـراً ثانوياً، إنه يمثل بالنسبة لكثير من الناس أرضية التفكيـر السياسي الوحيدة، ونمطاً من الملاحقة المجنونة للشياطين ملفوفة في خطاب عقلي زائف.

وكلمـا زادت نسـبـة العلمـانيـة والتـجـرد من المقـدسـات لدى مثقفينا زادت حـاجـتهم إلى الشيطان الأمـريكي الذي يؤمنون به، بكامل قواهم. لقد كان آرون يقول بخصوص سارتر أن أمريكا تلعب في مخيلته الدور نفسه الذي يلعبه اليهود كشياطين لدى المذهب القومي الاشتراكي.

وقد بينت قضية كوسوفو إلى أي حد يطمس العداء اليانكي كل قدرة على التحكم حتى لدى أكثر الناس تبصراً.

وهكذا ولدت بالفعل الحرب التي أعلنها حلف شمال الأطلسي ضد صربيا في ربيع 1999 فورة أحاديث مثيرة توضح أكثر من غيرها هذه العقلية.

فها هو الكاتب المسرحي الإنجليزي هارولد بينتر يصرح قائلاً: "إن تعريف السياسة الخارجية الأمريكية هو ما يلي: "قبل رجلي أو سأحطم فاك".

فـميلوسـوفيـتش رفض "تقـبـيل رجل أمـريكا، وعندئذ حطم كلينتون فم الشعب الصربي" (ليبراسيون 1999/4/9).

أما الفيلسوف والمناضل التروتسكي دانيال بنسعيد فينبذ بيد واحدة ميلوسوفيتش وحلف شمال الأطلسي باعتبارهما "شكلان

متعاصران تماماً وتوأمان من التوحش الحديث". وأما مدير متحف بيكاسو في باريس جان كلير فقد قارن بين بلغراد وغرنيكا وبين الطيارين الأمريكيين والطيارين النازيين الذين لا تهمهم الشعوب التي يحطمونها. أما سكرتير حركة المواطنين ديديه موتشان فأكد "أن أمريكا تريد أن تستخدم نزاع كوسوفو للفصل الدائم بين الروس وباقي الأوروبيين عن طريق أنهار من الحقد والدم إذا اقتضى الحال ذلك" (لوموند 1999/4/6).

وقد ذهب عالم الاجتماع الفرنسي دنيس ديكلوس إلى أن للتدخل الأمريكي هدفين هما "تحطيم أوروبا وقطع الطريق أمام الديمقراطية العالمية التي هي في طور الانبثاق البطيء، (لموند 1999/4/22).

وهذا مثقف آخر، أعلن نفسه متخصصاً في منطقة البلقان، قضى 8 أيام في تحقيق داخل منطقة تحت السيطرة الصربية ثم جاء يستحلف الرئيس شيراك في رسالة مفتوحة أن لا يلتحق بالأسطول الأطلسي بحجة أن الصرب "هذا الشعب القريب من السامي والمقاوم" يتكون من محاربين أشداء لا يغلبون، وهم مستعدون لدفع الثمن الغالي في الدفاع عن أراضيهم، وفي كل الأحوال، فإن المشكل ليس في بلغراد "وإنما في شوارع كوسوفو ومقاهيها وبقالاتاها (...) هؤلاء الرجال والحق يقال لا يدعون للاطمئنان" (كذا)[52].

فعملية حلف الأطلسي التي طعن فيها من حيث أهدافها الإنسانية المحضة، كما رفضت كتدخل بري باسم مذهب تفادياً أي

حالة موت، كانت حسب عبارة رنيو جيرار العميقة "عقوبة سبقت الجريمة" وربما كانت مبررة بسنوات الانتظار السلبي والندم على عدم فعل شيء في فيوكوفار وسراجيفو وسبرنيتشا.

فعلى الرغم من اللغو اللفظي المفرط ("إبادة الكوسوفيين")، ومن التحالف المريب مع العصابات الألبانية UCK التي لا تختلف كثيراً عن المتطرفين الصربيين من حيث التعصب القومي، فإن هذا التدخل كان له ميزتان هما إنقاذ ألبان كوسوفو ودفع سقوط ميلوسوفيتش بعد عام واستبداله بتحالف من الديمقراطيين.

فهل كانت الأمور ستتغير لو تمت الحملة تحت لواء أوروبي محض، هل ستكون القنابل أكثر نعومة والموتى أقل موتاً، والخسائر أقل فتكاً بالطرف الصديق؟

ونريد في الأخير أن نذكر المسلمين الساخطين اليوم على واشنطن أن القوة التي أنقذت إخوانهم من البوسنة وسكان كوسوفو ليست مصر أو الجزائر أو تركيا أو المملكة العربية السعودية، وإنما الشيطان الأكبر الأمريكي الذي جاء لتعويض أوربة المفلسة، مثلما خلص أيضاً الشعب الأفغاني من حكم طالبان.

ففي ظروف الأزمة، كان الأمريكيون وحدهم الذين ذهبوا للجمر، ولتلطيخ الأيدي، وربما للوحل، ثم بعد ذلك يهاجمهم الجميع ويسخرون منهم.

obeikandi.com

رجعي أو تقدمي؟

ثمة فكر يحمله السخط على اعتماد موقف مانوي يود وضعنا أمام الخيار التالي: إما أن تكون ليبرالياً أو لا تكون كذلك. لا حل وسط: أنت هذا أو ذاك.

بيد أنه من الممكن أن يعترض المرء على الوضع القائم انطلاقا من منطق مغاير بعيداً عن هذه الثنائية التي تأخذ شكل إنذار. وكما بين عن حق الفيلسوف البولوني ليزاك كولاوسكي، يمكن لكل واحد منا أن يكون "اشتراكياً، محافظاً ولبرالياً"، بحيث يريد في آن واحد أن يحد من التفاوت ويحافظ على التقاليد ويحبذ المبادرة الحرة والتنافس. "فهذه الصفات تمثل خيارات لم تعد تتعارض في ما بينها".

فكم هو ساذج أن نؤمن بصحوة ليبرالية هنا، واختراق محافظ أو اشتراكي هناك.

فما نرفضه هو فكرة الطريقة الأحادية للخلاص في الوقت الذي يهيمن على الناس النزوع للمزج والخلط.

فلئن كان الناس لا يزالون يتبنون هذا المذهب السياسي أو ذاك، إلا أن الخيارات تتعايش داخل أي اتجاه مهيمن.

فالمواطن المطلع في هذا القرن الجديد الذي لم تعد تحركه الخطابات المنمقة القديمة يتعامل مع الإيديولوجيات المتعارضة،

obeikandl.com

فينقر ما يلائمه، يطالب في آن واحد بمزيد من الحرية ومزيد من الدولة، يثور ضد البيروقراطية في الوقت الذي يضاعف طلبات الرعاية.

فما هو الإنسان المعاصر؟ إنه حصيلة كل الصراعات التي صاغته، خليط متنافر باطمئنان من التقدمي والرجعي، والقومي والأممي. والمؤمن والمتشكك، يسير بسرعة وانتظام.

إنه حيز عدمي من الأفكار المتعارضة، يرغب في الشيء وعكسه تخترقه أصناف عابرة من الافتتان، كما تخترقه قناعات هشة.

فهو كالبهلواني يجول بين العقائد، كالعصار يخلط بين النصوص، إنه حذر أكثر مما هو متلون، لا يثق كثيراً بالمذاهب العتيقة.

فهذا الراحل المتنقل لا يعرف كيف يضع حداً للحرب الأهلية التي يحملها في داخله؛ ولهذا الحوار المتلهب بين الأعداء الذي يحتضنه في أحشائه.

إنه يظل روحاً مقسمة، داخل عالم متصدع، وذاك هو الشرط الأوحد ليفلت من التعصب التبسيطي.

obeikandl.com

الاستبداد اللطيف:

تتمثل قوة أمريكا من هذا المنظور في استعمارنا بصفة خفية، أي في احتلال أذهاننا عن طريق "الإقناع السري" حسب عنوان فانس باكارد الشهير.

إن أمريكا هي شغلنا الشاغل جميعاً، وكل الذين يعتقدون أنهم يقرون ويتكلمون بحرية ليسوا في الحقيقة سوى خُرسٍ يتحدثون من بطونهم ودمى يحركها آخرون بالخيوط.

"لقد دخل الكوكب الأراضي إلى أمريكا مع قدوم شبكة CNN فاكتمل دمج السياسة الخارجية لعاصمة العالم بسياستها الداخلية، في حين تستخدم أمريكا عالم الماك الذي توفر من خلاله الصوت والصورة للجميع بالشاشة الكبيرة والصغيرة من أجل تغذية اللاشعور الجمعي بحسب مقاييسها، بدءاً بشباب أطراف المدن وصولاً للحكومات"[53] باختصار "لم تعد أمريكا بحاجة إلى أن تكون مهيمنة. لقد أصبحت بالنسبة لنا غير قابلة للدحض، أي إنها أصبحت في داخلنا"[54]؛ لأنها تكيف أسلوب وإيقاع الصور الحديثة، و "تنفذ إلينا بالأبصار"[55].

لا يهم أن تكون الأفلام والمسلسلات فرنسية، ألمانية، إيطالية أو صينية، فهي في العمق مطبوعة بالذوق اليانكي "بلغت أمركة العقول من التطور حد كون أي إدانة لها تبدو بالنسبة للبعض شيئاً فشيئاً غير مقبولة. فلأجل التخلص منها يتعين على المرء أن يكون

مستعداً أن يحرم نفسه من الممارسات الثقافية (في اللباس والرياضة واللعب والترفيه واللغة والتغذية) التي قد تعودنا عليها منذ الطفولة، وغدت تسكننا باستمرار. فالكثير من الأوروبيين أصبحوا منذ الآن متنوعي الثقافة، مهجنين دون انسجام، يملكون روحاً أمريكية في جسد أوروبي"(56).

فإذا كانت أمريكا بالنسبة للبعض العدو النموذجي، فذلك لأن العدو المثالي هو أيضاً القوة التي تجندك تحت رايتها وتقنعك بالرغم عنك بعدالة قضيتها.

(ومن هذا المنطلق ندرك أن الإسلام الراديكالي لن يكون أبداً البديل عن الشيوعية؛ لأنه لا يستميل أحداً خارج منطقة نفوذه باستثناء بعض التائهين منا).

ولنتذكر أن عالم النفس الآنتيي فرانز فانون استخدم في وصفه للظاهرة الاستعمارية في سنوات الستينيات استعارة "أجساد سوداء، أقنعة بيضاء".

فعقلية المستعمِر (بكسر الميم) نفذت إلى رأس المستعمَر (نفتح الميم)، وأفسدت رؤيته للعالم مما أوصله إلى التواطؤ مع سيده.

وكذلك الحال بالنسبة لأمريكا: إنها قابعة في عالمنا الحميم، تبسط فيه سيادتها. وبعبارة أخرى، سواء قبلنا أم لا نحن عملاء للعملاق الأمريكي، مخدرون، مراقبون وعرضة للتلاعب.

ومن الغريب أن برهان انجاسو رامونيه يذكر بذلك المسلسل

obeikandi.com

الأمريكي الذي ظهر في الخمسينيات وحصل على إقبال واسع في أوج الحرب الباردة، أعني مسلسل "الغزاة" الذي يتحدث عن كائنات من الفضاء تحضر لغزو الأرض عن طريق الانسياب تحت أجسام الناس العاديين.

فلأن هؤلاء الغزاة يشبهون الإنسان العادي المألوف، فإن كل أحد يصبح مشتبهاً بالقوة، مثلما أن كل مواطن أمريكي يمكن أن يخفي "متمرداً أحمر" مقبلاً على الفعل.

إننا لم نعد هنا في نطاق التحليل السياسي، وإنما في التعاويذ: فرامونيه هو ذاك الراقي الذي يطرد السحر، وهو الدرويش القادم من أقصى اليسار الذي يأتي لإنقاذنا نحن الذين تلبسنا الجن.

وكما في التحليل النفسي حيث كل مقاومة هي دليل كبت، فإن الاعتراض على التفوق الأمريكي يؤكد حقيقة هذا التفوق.

فدليل عبوديتنا لواشنطن هو أننا غير قادرين على قبولها، فالعبد الحقيقي هو الذي يعتقد أنه حر. ولا يشذ عن هذا التسمم الجماعي إلا مجموعة قليلة من الحكماء والمصطفين.

بيد أن ثمة شيء صحيح في هذا البرهان، فنزعة العداء لأمريكا لا يمكن أن تكون بمثل هذه الحدة لولا أنها تخفي قدراً مهماً من الجاذبية.

فأمريكا هي أعلى السلط إغراء، وهي في الآن نفسه أكثرها

obeikandl.com

تنفيراً. إنها تثير السخط وتسحر الألباب؛ لأنها تجسد الحداثة في أسوأ وأفضل مظاهرها، مع ذلك النزر من الجنون والغلو الذي يجعلها فريدة.

فتميزها يكمن في أنها عرفت كيف تجمع بين الحلم والقانون، وبين طوبائية الصفحة البيضاء والحس القانوني الصارم، وبين وعود التسامح وتصميم الفاتحين. فطموحها يتمثل في إعادة التاريخ من جديد على قاعدة عقد قوامه أن كل شيء ممكن.

"إن أهم ما أضافته أمريكا لتجربة العالم هو ذلك الحدث المثير الذي هو أمريكا نفسها، ولقد ساهمنا في تهيئة البشرية لكل المفاجآت القادمة" (دنيال بورستيس).

فهذه الأرض الاستثنائية التي هي أيضاً أرض اصطفاء، المتلهفة للنجاة من خواء المجتمعات العادية، فتحت آفاقاً جديدة للشعوب الأخرى: فحتى الأمور التافهة تضيف عليها أبعاداً، مثل هذه الفواكه والخضروات في المتاجر التي تصبح جد كبيرة وجد براقة، وهذه الشرائح الكبيرة جداً التي تقدمها المطاعم.

فعيوبها ليست فقط عيوب البورجوازية الأوروبية، من فظاظة وحقارة، إنها أيضا من صنف البشع الهائل.

فالحماقة عندما تهيج فيها تكون كثيفة مثل الإعصار، والقبح يكون كريهاً، خصوصاً عندما تتغطى بالمشاعر الجميلة وأمواج الخطميات.

فمجتمع الوفرة الذي ذكرنا، يتعين عليه دوماً أن يحمي نفسه مما يطبعه من سمات إفراط بادية في الغلو في المآكل، وفي السمنة والضخامة والتخمة.

فمن ملامح الاندفاع الجنوني التي يوحي بها هذا المجتمع الاندهاش والإعجاب والغيرة. فنفس أولئك الذين يحرقون العلم الأمريكي يسارعون إلى محلات الأكل الشعبي الجاهز، ولا يتفرجون إلا على الأفلام الأمريكية، ويهاجمون العملاق الأمريكي بواسطة الرموز الأمريكية ذاتها.

ففي أبريل / مايو 1999 كان المراهقون الذين نظموا حفلات الروك في بلغراد للتنديد بضربات الحلف الأطلسي يرتدون فيما يبدو قبعات "شيكاغو بلس" Chicago Bulls، وكذلك شأن أعضاء تنظيم القاعدة، الذين استلهموا غارتهم على أبراج نيويورك من سيناريو هوليودي رديء.

إن هذا الافتتان بأمريكا، الذي يذكر بالهوس المفرط بتقليد الإنغليز لدى الطبقات الحاكمة في القرن التاسع عشر، لا يمر دون بعض الغباوة، كأن يتلقف أتفه إنتاج سينمائي نيويوركي، وأي خربشات لمؤلف من برونكس أو مونتانا بارتسامات الإعجاب في أروبا التي لن تحصل عليها أبداً الكتب والأفلام نفسها إذا كانت قادمة من برست أو فلورنسا.

فتقديس أمريكا يتم على أحسن حال عن طريق هؤلاء

"الأمريكيين" المنشقين الذين ينتسبون للثقافة المضادة، ويصورون أنفسهم نقاداً لوطنهم. ومن ثم يتم تسديد ضريبة حب أمريكا، ويتسنى لهذا الحب أن يغوص في ذلك المسلك، معتقداً أنه صاف وهادئ.

فكم من مطربين وفنانين وروائيين يعلنون لنا منذ الستينيات نهاية الحلم الأمريكي! ولكن الحلم الأمريكي -حتى ولو شابه الكابوس- لا يزال يلهم الناس، ويبقى حياً بعد كل إعلان لموته.

فعبادة أمريكا من خلال نفور بعض مواطنيها منها، تشكل دون شك شكل التعلق الأكثر صلابة بها.

فالولايات المتحدة، تلك الجمهورية القاطعة للطريق، ذلك الغني الجديد، وهذا البلد الذي ينقصه التهذيب والكياسة، والنموذج القائم على الفظاظة والبريق الخادع، تثير حتى لدى الذين يشتمونها تزلفاً خاصاً.

فهذا الكره الذي يمتد لقرون وأجيال وعائلات سياسية عديدة له قيمة الامتياز: فلا توجد إمبراطورية اليوم تتعرض لمثل هذا التحقير والقدح والدوس.

فلنفحص من جديد حالة رامونيه؛ لأنها ذات مغزى. فهو عندما يشرح لنا أن الأمريكيين يفرضوننا على معالجة مشكلات العالم بعباراتهم الخاصة، لأنهم واثقون من التحكم في الألفاظ والمفاهيم والمعنى، يطمحون إلى إقامة استبداد "لذيذ واضطهاد

لطيف"، فـإنه بذلك يوحي لنا أنه في أعـماقـه مـخلوق خـاضع للإمبراطورية وأحد أصواتها.

ويطفو الشك من جديد عندما يحلل بدقة مفرطة المسلسلات البوليسية على شاكلة كولومبو وكوياك، أو الأفلام الكارثية. فالحماس الظاهر الذي يحلل به تلك المسلسلات والأفلام يبين أن كتابه هو قبل كل شيء صيحة محب معاتب يعشق السينما الأمريكية، في الوقت الذي يقر في نهاية كتابه بالضجر من السينما النضالية.

ولكن رامونيه يلجأ إلى قريحة النقد التفكيكي للتوفيق بين هذا النزوع وقناعاته السياسية، ولتجاوز هذا الانزياح الهائل.

فما يقصه علينا هو تاريخ ميله الشقي، أي استلابه للثقافة اليانكية، أكثر مما يسرد علينا الدعايات الصامتة التي ارتوينا منها.

فحدة الاهتمام لا تكاد تخفي كثافة التعظيم، إنه فعل حسرة تجاه عشيقته الظالمة، يعتب المرء على نفسه أنه لا يزال يحبها من شدة ظلمها.

وجوه الإنكار:

هناك إذن ألف سبب لبغض أمريكا: نتيجة لنجاح اقتصادها الوقح، وقوتها المفرطة، وتمييزها الدائم (بين الأعراق)، وقساوة نظامها العقابي، ومثاليتها المبتاكية في خدمة صلف وجشع مركب

المال الهائل، ومظاهر التفاوت الاجتماعي، ونتيجة لغرورها المذهل الذي لخصته هاتان المقولتان اللتان نطق بهما الرئيس بوش خلال حرب الخليج: "لا مساومة على نمط الحياة الأمريكي".

أما الناطق الرسمي باسم ابنه فقد قال معلقا على التنصل من بروتوكول كويوتو يوم 17 مايو 2001: "إن الرئيس بوش يعتقد أن المستوى المرتفع من استهلاك الطاقة يناسب نمط الحياة الأمريكي، ويرى أن إحدى مسؤوليات المنتخبين تتمثل في الحفاظ على نمط الحياة الأمريكي. فنمط الحياة الأمريكي مبارك"[57].

ويمكن أن نؤنب الولايات المتحدة على نفاقها فيما يتعلق بالسياسة الخارجية، وتهورها في التعامل مع الطغاة الموالين لها، الذين تمولهم ثم تتبرأ منهم، حتى ولو اقتضى الحال خلق وحوش سينقلبون عليها من بعد (...)[❖]، كما تنزع في الآن نفسه إلى لعب سياسة العصا الغليظة داخل فنائها الخلفي اللاتيني الأمريكي، عندما تغدو مصالحها مهددة، على الرغم من نقمة الشعوب، وتمارس ازدواجية المعايير، فتروِّج لنموذج لا تطبقه في نفسها، فتنتهك العقيدة اللبرالية من خلال إجراءات الحماية والتدخل العدواني في الميادين الحيوية التي هي السلاح والفضاء والتقانة وصناعة السيارات.

وأخيراً، فإن على أبناء العالم القديم الفاسدين أن يدفعوا ثمن

(❖) حذب بمقدار سطر لعدم مناسبته أخلاقياً.

إنقاذ أوروبا من شياطينها ثلاث مرات في 1917، 1942، 1947.

فمثل هذا الدين أقرب ما يكون للعار.

وباختصار أينما وجهت نظرك للأمريكيين وجدتهم مخطئين، والمأزق يكمن في صعوبة الاختيار، لشدة ما يجسدون أدق تجسيد الهوة التي تفصل المثال الديمقراطي عن نتائجه الملموسة، خصوصاً إذا كان مقروناً بكل ذلك التفوق.

ذلك أن الإمبراطورية المتشدقة بالعبارات الأخلاقية المنمقة عاجزة عن الوفاء بالتزاماتها. فهي تشخص من خلال تفوقها الكاسح بُعْدِي الجلاد والضحية معا.

إنها تظل حافظ السلم وحامي "العالم الحر" في غياب أوروبا التي لا تزال عاجزة عن بناء دفاع ناجع. ومن هنا الجزع من إدراك أن الحامي معرض للخطأ، ويمكن أن يزعزعه بضع عشرات من قراصنة الجو الجريئين.

بيد أن قناعة الأمريكيين بأنهم "مصطفون" لبناء قدس جديدة مبرأة من ذنوب الجنس البشري تولد خوف الجميع من لحظة جنون تنشأ عندما يعمد لسوء الحظ شخص مثل الدكتور فولامور إلى أخذ قرار مثير يريد اختزال الشؤون البشرية المعقدة في منطق الذرة وحده، باسم الجهاد المقدس ضد الشر.

ولنضف إلى ذلك أن العديد من الخلافات الجدية تفصل ما بين العالم القديم والعالم الجديد، في الشؤون التجارية، والهيمنة

الثقافية، ودولة الرفاه[58] ولكن كذلك في عبادة المال والحرب بين الجنسين والنزعة التطهرية المتكررة.

صحيح أن دولة الرفاهية هناك هي أمريكا نفسها، موئل الثراء التي من المفروض أن تحتضن مستضعفي المعمورة، ومن الصحيح أيضاً أن الخيار بين الوظيفة الكاملة دون إعانة (الولايات المتحدة) والبطالة المدعومة (أوروبا) ينمحي بالنظر لتماثلهما في الحيف[59].

وأخيراً؛ فإن الجمهورية الفرنسية كشقيقتها الأمريكية استندت دوماً منذ 1789 لمعيار الكونية، معلنة حقوقاً جديدة للإنسانية جمعاء، إلى حد أن أمريكا أصبحت في منتصف القرن العشرين المنافسة الكبرى لفرنسا، والنموذج المضاد المزدهر الذي يشير بدليل التعارض إلى أزمتنا.

وكلما اعتمد الفرنسيون أكثر بعض المسالك الأنغلوساكسونية في العمل والتسيير والإنتاج الصناعي - نعرف كم كان بعض الوزراء الاشتراكيين مفتونين بالنجاح الأمريكي إلى حد قريب - اعتقدوا أنهم مرغمون على نبذ قيم هذا النموذج الأنغلوساكسوني.

فالتقليد لا يمكن أن يتم إلا بحسب صيغة النفي.

إستراتيجية من القوي إلى الضعيف:

من قبيل تحصيل الحاصل وصف الجاذبية التي تتمتع بها أمريكا بالقول إنها باعتبارها مهيمنة قادرة على تكييف العقول وتوجيهها لتقديسها.

فأمريكا تسيطر علينا لأنها مسيطرة. ويصل النقد أحياناً درجة من الحدة تخرج عن طوق المعقول: فإذا كانت الولايات المتحدة هي الجحيم التي يصفه بعضهم، وإذا كان الفقراء والمهاجرون والسود خاضعين لأصناف من العذاب تناسب دولة مستبدة، فلماذا لا يغادرها سكانها بالملايين كما فعل لاجئو الزوارق الفيتناميين والصينيين؟ كيف نفسر أن هذا المستبد الكريه هو أيضاً مثال للشعوب المضطهدة يحلم الكثير من الرجال والنساء بالهجرة إليه؟

فالتشخيص الضروري للوضع الأمريكي قد ينقلب في لحظة ما إلى تشهير فيفقد كل صدقية.

ففضلاً عن كون الديمقراطية تظل شديدة الحيوية ومثالية في بعض جوانبها، فالأنظمة الأنغلوساكسونية من بين المجتمعات القليلة في الغرب التي أفلتت من الإغراء الفاشي والستاليني، فإنه يجب الاعتراف للثقافة الأمريكية ببعض الحيوية والديناميكية الباديتين في كل أمريكا، وببعض العظمة التي تقترب من السمو: لنشاهد نيويورك، شيكاغو وسان فرانسيسكو.

فاختزال أمريكا في لهو العبيد وتسلية الكاوبوي البدائية هو نوع من الضحك على عقولنا.

وفي فرنسا يختفي الحقد على أمريكا تحت قناع بعد النظر والذكاء. فحسب علمنا لا تنقص الموهبة على ضفاف البوتمكاك والهدسون عن الموهبة على شواطئ السين.

ولن نربح شيئاً بالتقليل من قيمة الإشعاع الأمريكي، ولا بتقديم هذه الحضارة في صورة كاريكاتورية تتسم كلياً بالصراع والعنف والبلاهة.

ومن البدهيات التي يجب أن نتذكرها دوماً: أن التعقل يملي علينا بأن نكون موالين لأوروبا، لا معادين لأمريكا.

فللوقوف ضد قوة الآخر، يتعين أن نسعى نحن لأن نكون قوة قادرة على تحقيق التوازن مع القوة الأخرى، بقدر ما نستوحي منها، ونبني معها على أرضية قيم مشتركة.

وهكذا يتـــوجب على أوروبا إذا أرادت أن تنافس الولايات المتحدة أن تشبهها نوعاً ما في البداية. لأن أمريكا تسبقنا دوما بحل إشكالات تتعرض لها وستطرح لنا من بعد في يوم من الأيام.

فالحلول الأمريكية، مهما كانت قابلة للاعتراض، تستحق تشخيصاً أكثر عمقاً من الرفض النهائي.

(لا يمكننا أن نفلت من الحوار حول التمييز الإيجابي ما دامت لدينا جالياتنا المغاربية والســـوداء والآسـيوية التي من الفضائح أنها ضعيفة التمثيل في مجالات الإعلام والإدارة والسياسة والأعمال).

فعلى الرغم من النزاعات القائمة بين المجموعات القومية في الولايات المتحدة، إلا أنها تشكل أول مجتمع متعدد الأعراق في العالم، وأكثر المجتمعات تهجيناً، والمجتمع الوحيد حتى الآن الذي

يعتبر المهاجرين غنى وليس جرحاً، مما يجعل مدنها الكبرى مزيجاً كثيفاً وملوناً من الملامح والمطامح واللغات.

وكما يقول بصدق آلفريدو فالادو: "كل ما في العالم يمكن أن يكون أمريكياً؛ لأن أمريكا هي العالم بالفعل"[60] إنها أمة بآلاف الهويات، تواصل حلم نجاح فردي متاح لجميع البشر، بغض النظر عن أصولهم أو أجناسهم.

يمكن أن نعترض على هذه "الماكينة الكبرى لإنتاج الكونية" (فالادو)، ويمكن أن لا نرى فيها مستقبل النوع البشري بالضرورة، ولكن عندئذ يتعين أن نقدم مقابلاً لها يكون شيئاً آخر غير الإنذار والتوبيخ، ويتوجب علينا أن نبني بأنفسنا نموذجاً أفضل للعدالة الاجتماعية والتعايش العرقي. وبعبارة أخرى، علينا أن نختار بين طريقتين من المحاكاة: محاكاة الببغاء التي تتمثل في إعادة إنتاج آلي لنمط الحياة الأمريكي، ومحاكاة الضعيف للقوي الذي يدخل في مدرسته لكي ينجو منه بالمسلك الأمثل.

فالصنف الأول يتلخص في كرنفال على شكل محاكاة القرود تذهب من الأكلات السريعة الجاهزة إلى الزي الشبابي، دون أن ننسى الاستخدام المثير لخليط من العبارات الفرنسية والانجليزية لدى وكالات الإعلان، والمقاولين والصحافيين مما يشكل نوعاً من لغة الصبير المتطورة التي هي إهانة لعبقرية اللغتين ومن شأنها عموماً أن تزيد من حدة الجهل بكل منهما بسوء معرفة الأخرى،

وإن كانت تمنح بالتأكيد من يرطنون بها وهم الإفلات من القيد الوطني.

ويكثر هذا النمط من المحاكاة الهزلية لدي المراهقين الذين يفوتهم أحسن ما عند روما الجديدة مثل ثقافة الخطر والتعبئة، ونوع من النزعة الاختبارية، والقدرة على تحويل الفشل إلى درس، والحيوية الصلبة والوطنية الراسخة (فإذا كان ثمة شيء يمكن أن تعلمه لنا أمريكا فهو أن تعلمنا كيف نستعيد معنى الأمة وكيف نرسي سياسة اقتصادية حقيقية).

فالمعادلة الأمريكية هي: السعادة للجميع بالإضافة إلى التفاؤل التاريخي، وأما المعادلة الفرنسية فهي ثقافة اللذات بالإضافة إلى التشكك المعقلن. فالمعادلة الأولى ينتج عنها أحياناً فعل لا معقول، والمعادلة الثانية تفضي أحياناً إلى الشلل.

فثمة طريقة أخرى لتتبع آثار المنتصر تتمثل في أن نسرق منه سره للتحرر منه. فانتحال عقلية القوة المهيمنة، هو نوع من شق الطريق للانفصام الضئيل معها، وسبيل لامتلاك وسائل مقاومتها على أرضيتها الخاصة. فالجهل الخالص والمجرد قد يكون صنفاً من الانتحار، وكذلك أيضاً شأن تبعية الاستعباد.

تبقى إذن طريقة الاتباع الإشكالي، أي الخطر المحسوب: "افعلوا مثل ما نفعل" كما يقول الأمريكيون الذين يرفعون أنفسهم إلى مستوى المعيار الكوني.

فباتباع الأمريكيين في بعض المجالات يمكننا فقط أن ننتهي شيئاً فشيئاً إلى التنصل منهم.

وهذا هو حال آلاف الطلاب الفرنسيين والإيطاليين والإسبانيين الذين يذهبون إلى ما وراء المحيط كل سنة للتعلم ثم فك الارتباط، فيطلعون على ممارسات جديدة يوظفونها من بعد لفائدتهم. فالاستلاب المؤقت تتلوه العودة للذات، وقد تخلصت من العقد واغتنت ببعد جديد.

فالتقليد هو أيضاً نمط من الاختلاف، ومن تدجين النموذج الرائع لجلبه خارج مجاله الأصلي. وربما كنا الآن داخل هذا المسار وفي خضمه.

فمحاكاة أمريكا تعني التحرر بقدر ما تعني الخضوع، أي القدرة على التجدد بالاحتكاك مع ثقافة مهيمنة. سخاء المحاة من ناحية، ومن ناحية أخرى مهارة التأليف الناجع الذي يسعى بأناة إلى إعادة صياغة استراتيجيات سادة العصر. فللتخلص من قبضة أمريكا، يجب البدء بدراسة أمريكا والنهب منها، للتعرف على قواعدها لكي نستعملها ضدها. فالثقافة الأمريكية أصبحت "عامل صياغة كونية" تسمح لخصوصياتنا بإعادة التشكل دون أن تضيع.

أمريكا ليست لها وسائل تمكنها من أن تكوِّن إمبراطورية

أما خطر توحد العالم تحت هيمنة واشنطن فليس سوى مجرد وهم محض: ليس فقط لأننا نبالغ في أهمية اللغة الإنجليزية

التي يقول المختصون إنها يتحدثها 20 ٪ من سكان العالم. ولئن كانت لغة المبادلات، فإن هذه الإنجليزية التي تنتشر هي انجليزية مكسرة تزداد فقراً عبر انتشارها: فكل الناس يتلعثمون في نطقها دون أن يعرفوها، ويتواصلون في ما بينهم بإبهام عن طريق عدد قليل من الكلمات. وباختصار، إنما تربحه ربما تفقده من حيث الجودة والغنى[61].

ولكن خصوصاً لأن أمريكا ليس لها أهلية الإمبراطورية، حتى ولو كان بعض قادتها يغذون هذا الوهم، لسبب بسيط هو أنها مجتمع مقبل على اللذة، مجتمع فردي، غير مستعد للتضحيات التي تقتضي مثل هذا الطموح.

إنها إمبريالية دون شك لكن دون النتائج السياسية، والأنتروبولوجية التي تنجم عن هذا الوضع، إنها ببساطة لا تتمتع بالقدرة على إتقان هذه المهمة: ومن هنا ندرك كيف أحالت مسؤولية "جلب الحضارة" للعالم إلى السوق بحسب إيديولوجيتها اللبرالية الجديدة، مما كان عاقبته إخفاقاً ذريعاً.

فثمة انزياح حاد بين قوة العملاق الأمريكي الشمالي وعقلية سكانه: فهؤلاء يمكن أن يعرفوا لحظات التضامن الكبير وبعض الوثبات الوطنية الدائمة، لكنهم غير مخلوقين لإدارة المعمورة، ولا يمكنهم أن يقوموا بذلك أبداً؛ لأن "رسالة أمريكا" هي الرفاهية الشخصية وحب الحياة.

obeikandl.com

فليست الريادة الأمريكية هي المقلقة، وإنما المقلق هو تكتمها والشعور بأن هذا الدركي المتخفي ليس في مستوى المسؤولية الملقاة على عاتقه ودليل ذلك أن الإدارات المتعددة التي تولت مقاليد السلطة منذ 1989 كانت غير قادرة على تحمل مسؤولية النظام الدولي الجديد، مثل طفل عيونه أكبر من بطنه يشبع عند اللقمة الأولى(62).

إن أمريكا الثملة بنجاحها المادي والثقافي والاقتصادي نست "أن أسوأ عدو للنجاح هو النجاح نفسه"(63)، وإن القوة المطلقة التي تزهو بها بخيلاء هي عبء جد ثقيل على عاتقها.

لقد فقدت أمريكا من قبل براءتها في كارثة فيتنام، وعليها منذ الآن أن تندب استهتارها، وأن تنبذ عجبها بنفسها، وأن تقتسم سيادتها مع غيرها، وتنحني للمؤسسات الدولية وإلا تعرضت للعزلة المتنامية.

لقد آن إذن الأوان أن نخفف عن عاصمة العالم الأنغلوساكسونية بعض مسؤولياتها الثقيلة؛ ولذلك لا بد لأوروبا أن تتخلص من عقدة بيتربان، وأن ترضى بأن تكبر، وأن تتحمل مصيرها على كل المستويات، وتنهي اعتمادها في أمنها على الحلف الأطلسي.

يتعين على الولايات المتحدة والأمر مؤكد أن تتعلم البساطة، وتدرك أن مصلحتها ربما تكون في مثل هذا التقاسم للمسؤوليات مع حلفائها.

OpenKandil.com

ولكن من السذاجة أن نتوقع من الولايات المتحدة أن تقوم بإصلاح نمط تفكيرها بصفة جذرية. فما تمت صياغته عبر قرون أربعة من التاريخ لن يقوض في جيل واحد.

فستستمر الولايات المتحدة طويلاً في إبداء هذا الخليط المدهش من طيب القلب[64] ولطف المودة والحرص الشديد على عدم الاهتمام بالشعوب الأخرى الذي هو خاصيتها المميزة.

فالذي عليه أن يتغير ليس الولايات المتحدة، وإنما نحن المطالبون بإعادة توجيه طاقاتنا، بدلاً من أن نستمر في استجلاء صورتنا على نحو يدعو للرثاء في مرآة ابن عمنا اليانكي[65].

فالتنافس هو الذي يوحدنا مع أمريكا، ويدفعنا لمحاكاتها حرفيا، وإلى شتمها بجفاء، والتعايش الصافي من الأهواء هو الذي يفصلنا عن جيراننا الأوروبيين ويبعدنا عنهم. وقد آن الأوان أن نحول هذا التنافس إلى مزاحمة سليمة، إلى منافسة إيجابية بين قطبين قريبين من بعضهما، ومختلفين عن بعضهما، فكلاهما يحتاج إلى أن يتعلم من الآخر من حيث الجرأة والحكمة.

فيمكن أن نأخذ على أمريكا كل المآخذ إلا مأخذ نفورنا منها. ومن هنا يتعين نعت الذين يدعون التمسك بسيادة الدولة بالانهزاميين؛ لأنهم بشتمهم لبروكسيل وبيروقراطييها، وبرفضهم كل صيغة فيدرالية أو كونفدرالية، لا يتحصلون على الوسائل السياسية التي تمكنهم من التحايل على تفوق أمريكا الشمالية.

إنهم يفضلون التحسر على الفعل. ذلك أن عبارات التوبيخ التي يتلفظ بها "أعداء الامبريالية"، لها سمة خادعة تتمثل في كونها تؤمن استمرارية الأشياء الممقوتة، فهي عبارات لاتوبخ لكي تقتل، وإنما لكي تضمن المحافظة: إنها مجرد صور بلاغية للاستمرار في الاستهجان باطمئنان بالغ.

فهذا الاشمئزاز يشكل نوعاً خاصاً من الاستسلام: ننجرف فيه عندما نقرر الرضا بالوضع القائم.

ذلك أننا نتمسك بالفزاعة الأمريكية، فهي الشيء الوحيد الملموس الذي يمكن الاعتماد عليه، إنها الخصم النموذجي الذي يجمع كل أشكال الدنس الممكنة.

فليس التفوق الأمريكي محتوماً ولا التقوقع الأوروبي قدراً حتمياً بشرط أن يصبح الاتحاد الأوروبي شيئاً آخر غير ائتلاف من العناصر العاجزة، وأن يبدع أدوات سياسية وعسكرية جادة وناجعة (بالاتفاق خصوصاً على نموذج اجتماعي أوروبي معدل ومراجع).

والأوراق بأيدينا: فإما أن نبني سلطة مضادة أو نكون مستذلين برضانا محكوم علينا بالنشاط التافه، محصورين في مجرد دبلوماسية الرفض والاعتراض. علينا أن نسعى لتقوية أنفسنا بدلاً من اغتياب ابن عمنا على الجانب الآخر من الأطلسي، مما لن يمنع أبداً روابط التضامن والصداقة والتنافس التي تشكلت عبر تاريخ مشترك طويل ستنتهي نزعة العداء لأمريكا، ذلك المرض

الطفـولي الذي تعـاني منه أوروبا وهـي فـي طور تكونهـا، وأمـريكا اللاتينيـة التي لم تصنـع وحدتها، في اليـوم الذي تكف فيـه الولايات المتحدة عن أخذ رأي هاتين المجموعتين في كل شيء، بحيث تحسم قضايا العالم الكبرى دونهما.

باختصار، ستنتهي هذه النزعة في اليوم الذي لا ينظر إلى الخصوصيات الاقتصادية أو الثقافية بصفتها عوائق وإنما بصفتها فواصل.

obeikandl.com